

الفصل الثالث

نظرية التفسير التاريخي

١ - قد يكون من الأفضل لنا - بادئ ذي بدء - في هذا الجزء من الدراسة أن نتساءل ما هو تاريخ الأدب؟ أن كلمة تاريخ توحى إلينا بلا شك بالماضي، والماضي لا يصبح تاريخياً إلا إذا فهمناه تاريخاً للإنسان وجهوده، بينما الأدب فن من فنون التعبير الإنساني. ومادامت كلمة تاريخ تحمل معنى الماضي الإنساني، بينما كلمة أدب تحمل معنى فن تعبيرى إنساني، فإنه (أى تاريخ الأدب) يعنى دراسة الماضي الإنساني كما يصوره الأدب. وقد يكون لكلا الكلمتين استعمالات أو دلالات خاصة في مجالات نقدية أو علمية عديدة، ولكن من المؤكد أن أبسط تعريف لتاريخ الأدب، هو أن يقال أنه دراسة الماضي الإنساني لفن الأدب. وعلى هذا الأساس نفهم أن الدارس في هذا المجال يقوم بعملية البحث التاريخي من جهة والنقد التاريخي من جهة أخرى.

ولنحاول أن نتوقف عند بعض التعريفات المختلفة «لتاريخ الأدب» لدى جماعة من المتخصصين حتى نقف على دلالة هذا المجال وأهم خصائصه من جهة ثم نتقل إلى معالجة مناهج بحثه من جهة أخرى. ولنبدأ أولاً بهذا التعريف الذي يقدمه لنا الناقد الإنجليزي المعروف سبيلر Spiller حيث يقول: «يعنى تاريخ الأدب أولاً وقبل كل شيء، وصف وتفسير أدب شعب من الشعوب في لحظة تاريخية محددة»، ويضيف قائلاً: «أن تاريخ الأدب ليس تاريخ للغة، وليس تحقيقاً للنصوص، وليس نقداً أدبياً، وأن كان يحتم على مؤرخ الأدب أن يكون ملمماً بأطراف هذه المجالات»، وعلى ضوء هذا القول لا بد لكل دارس لتاريخ الأدب أن يحدد طبيعة الآثار الأدبية وعصرها ووسطها وعلتها ظهورها، فهو - أى المؤرخ للأدب - كالمؤرخ الفكرى أو الثقافى أو الحضارى، يكتب تاريخ الإنسان على ضوء فكره أو نظامه الفكرى أو الثقافى.

إذا ما أنتقلنا إلى تعريف آخر لتاريخ الأدب، ألا وهو تعريف ديبي Duby وجدناه يقرر ببساطة أن تاريخ الأدب يعنى إجلاء الآثار الأدبية المنجزة فى الماضى، وتعريفها ووصفها وفق تسلسلها التاريخى فى سياق الزمان والمكان ويشرح لنا ديبي فى موضع آخر المقصود بهذا التعريف فيقول: «أن هذا النوع من الدراسة لتاريخ الأدب يكون وصفاً وتفسيرياً، وينهض على المفاهيم العلمية والفنية». والحق أن ديبي ينظر إلى ماضى الأدب على أنه جملة تراكمات ثابتة. هذا إلى جانب أنه ينظر إلى العناصر التى تشكل هذا الماضى باعتبارها موضوعات منعزلة رغم إطارها الزمنى الواحد.

وهنا نجد أنفسنا بإزاء تعريف آخر يقدمه «ريكور» ويبدأ هذا التعريف فيقول: «إن مفهوم تاريخ الأدب لهو مفهوم وصف الآثار الأدبية، وتفسير مصادر كل منها وأسبقيته فى تأثيره على الآثار الأدبية». وهذا الرأى، كما هو واضح، يعطى للمصادر والمؤثرات الأدبية مكاناً هاماً، دون أن يأخذ بعين الاعتبار المؤثرات الخارجية التى يتلقاها الأدب من الوسط أو العصر. وكأننا نفهم ضمناً من هذا الرأى أن الآثار الأدبية تمر بمرحلة توالى سببى على مستوى خاص بها، دون أن يكون لمبدعها أو قارئها دوراً يذكر.

أما «سويول» فيرى أن تاريخ الأدب يعنى بوصف الآثار الأدبية كما يعنى بتعريفها وتفسير مصادرهما مستنداً فى ذلك إلى تجربة الكاتب وإلى الثقافة التى يرتبط بها من جهة والمؤسسات الإجتماعية والسياسية والأساطير الشائعة من جهة أخرى.

٢- وأما فيما يتعلق بدراسة تاريخ الأدب دراسة علمية فإن ذلك يقتضى من الناقد أو الباحث أن لا ينظر إلى الوقائع الأدبية من زاوية ربطها فى نطاق العلية والمعلولية، وأن لا ينظر أيضاً إليها من زاوية ربطها بإطارها الزمنى والمكانى بصورة مجردة بحيث تبدو الوقائع الأدبية فى سلسلة مترابطة. بل عليه أن يتجه إتجاهها تكاملياً، يفسر الوقائع الأدبية على ضوء روح العصر، دون الأقتصار على مجرد جمع الوثائق وتكديسها. فالدراسة الموضوعية للوقائع تتطلب تحليل هذه الوقائع على ضوء الظروف الإجتماعية والفردية، والمعايير الأدبية التى أحاطت بتلك الوقائع. وبالتالي لا يفسر تاريخ الأدب إلا بالاستعانة بمفاهيم النقد الأدبى،

والسوسولوجى، والسياسى، واللغوى . . . ، على اعتبار أن الوقائع الأدبية ليست نتاجاً مباشراً للدوافع فردية صرفة بقدر ما تفسرها أسبابها التاريخية والاجتماعية التي تعد العلل الحقيقية الكامنة وراء أحداث ووقائع التاريخ الأدبى .

فليس الفرد المبدع هو محرك تاريخ الأدب، وليس تاريخ الأدب هو تاريخ الأفراد المبدعين، بقدر ما هو التاريخ الثقافى الذى يحيط به الأفراد المبدعون . فالوقائع الأدبية لا ترجع إلى الفرد المبدع وحده بل تتمخض عن حركة متعددة الجوانب، فهى تتضمن، الفرد والظروف والمواقف التى تمليها العوامل الاجتماعية، والمواقف السياسية . ولا يعنى ذلك أننا نتجه للتقليل من أهمية دور الأفراد المبدعين، والتكرار لوظائفهم التاريخية وأدوارهم الثقافية، إنما قصدنا من وراء ذلك أن نوضح أن إطار التاريخ الأدبى هو إطار إجتماعى وفردى فى وقت معاً .

وعلى هذا الأساس يستخدم الناقد التاريخى المنهج التاريخى لتفسير ووصف ماضى الظواهر الأدبية ويوضح لنا: كيف جاءت وأين ومتى ظهرت؟ فإذا طبق المنهج التاريخى للأدب دون الاستناد إلى وثائق يقينية مؤكدة، يكون الناتج حتماً بعض الافتراضات الظنية غير قابلة للتحقيق . ولكن منهج تاريخ الأدب الحق هو الذى يعتمد أصلاً على الحقائق المؤكدة والثابتة، إستناداً إلى الوثائق الأصلية التى تستخدم لاستجلاء الوقائع الأدبية . وباستخدام فرضية الانساق المتكاملة يمكن للباحث التاريخى النظر إلى الوقائع الأدبية باعتبارها عنصراً من عناصر البنيات الثقافية يلعب دوراً معيناً داخل هذه البنيات .

أن الوقائع الأدبية ليست وقائع منفصلة الواحدة عن الأخرى، وإنما هى معطاة ككل وظيفى تتصل فيه الأحداث وترابط بعضها ببعض . وهذا المعنى يضيف على تاريخ الأدب وعلى الحقيقة التاريخية عنصراً دينامياً متغيراً، ويتخلى عن النظر إلى خصائصها الإستاتيكية الثابتة، نظراً لأن الوقائع الأدبية لا يمكن فصلها عن سياقها التاريخى والاجتماعى، أو تفسيرها بعيداً عن مواقف الحياة الثقافية . فالماضى الأدبى هو جزء لا يتجزء من الماضى الإجتماعى والتراث الثقافى، كما أن موقف الكاتب فى التاريخ الأدبى إنما يتكامل مع المواقف الإجتماعية والتاريخية، فالتاريخ الأدبى كالتاريخ العام تحكمه حركة جدلية - لا يمكن نزعها عن إطاره الإجتماعى أو الثقافى .

ولهذا السبب يجب على الباحث أو الناقد التاريخي ألا يقف عند حدود وصف الوقائع الأدبية في علاقاتها المتبادلة، إنما ينبغي عليه دراسة تلك الوقائع من خلال حركتها وتغيرها والنظر إليها على أنها في كل متماسك الأجزاء. بمعنى أن لا يصف الآثار الأدبية وتغير مصادرها دون ربطها بهذه المصادر ودون ربط هذه المصادر بالإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا يمكن فهم الوقائع الأدبية إلا من خلال إرتباطها بالوقائع الأخرى، حيث يتصل زمان هذه الوقائع ويستمر، ويفسر بشروط مستمدة من ماضيها، باعتبار أنها خاضعة لصيرورة معينة.

٣- أما أصحاب نزعة المواقف التاريخية فيذهبون إلى القول بأنه من الواجب وصف الآثار الأدبية وتفسير مصدرها في وضعها الخاص، أى النظر إليها على ضوء مواقف معينة. فأصحاب هذه النزعة ينظرون إلى الآثار الأدبية في أستجابتها أو صراعاتها لموقف من المواقف فهم يعتقدون بأن هناك مواقف معينة تثير عالم الكاتب كما أن هناك أستجابات شعورية وأنماط فكرية يفضلها يستطيع الكاتب أن يواجه تلك المواقف خلال حياته الأدبية. وهذه المواقف تبدو مرتبطة بمعنى ما من المعانى بالمواقف التاريخية من ناحية، وبروح العصر وسماته من ناحية أخرى. وهذا يعنى أن تلك المواقف هى الأساس الذى يجب على الباحث أو الناقد التاريخي أن يلتفت إليها حين يقوم بوصف وتفسير الآثار الأدبية. كما يجب عليه أن يلتفت أيضاً إلى المرحلة التاريخية التى ظهرت فيها هذه الآثار. فالمواقف الأدبية هنا تعد المصادر الحقيقية للفكر والعامل الأساسى لتفسير طبيعة الوقائع الأدبية.

والوقائع الأدبية على ضوء هذه النظرية ليست إستاتيكية ثابتة، بل تبدو منبثقة من قوى دينامية تاريخية أساسها الحقيقة الأدبية. فهذه الحقيقة تختفى فيما وراء المواقف الفكرية والتاريخية.

وغاية التاريخ الأدبى على ضوء هذه النظرية هى الكشف عن الوقائع الأدبية وربط أصولها التاريخية بالمواقف الفكرية والاجتماعية. وأكتشاف الأصول التاريخية للحقائق الأدبية يتم عن طريق تتبعنا لعملية التطور التاريخي والتطور الأدبى فى نفس الوقت.

ويقرر أصحاب هذا الإتجاه أن كل عصر من العصور الأدبية إنما يخضع لأسلوب معين للفكر وتسوده بعض المظاهر والإتجاهات المحددة، حيث نشاهد في كل عصر من عصور التاريخ نماذج معينة من الأدب، ويغلب على هذه النماذج بعض المظاهر الكلية التي تعبر عن روح العصر التاريخي.

وما يؤخذ على هذا الإتجاه أنه يخضع الوقائع الأدبية ذات الصبغة المتفردة للوقائع التاريخية العامة، ويحاول إخضاعها للقوانين العقلية العامة، وهذا المنظور يتفق مع وظيفة مؤرخ الثقافة بوجه عام ومؤرخ المعرفة بوجه خاص.

٤ - لو أننا أردنا الانتقال مرة لأخرى إلى نظرية «سبيلر» فس نجد أنفسنا بإزاء مفاهيم علمية فنية لتحديد وظيفة المؤرخ الأدبي وتحديد موجهات عمله. فهذا الأخير يلتقى في عمله مع الباحث التاريخي من جهة والناقد الأدبي من جهة أخرى، فهو يكون باحثاً تاريخياً عندما يحاول اكتشاف طبيعة بعض الوقائع الأدبية. وهنا يصبح كالباحث العلمي في أى مجال من المجالات، عليه أن يحدد الظاهرة، موضوع بحثه، تحديداً دقيقاً وأن يشكل للظاهرة عدداً من الفروض أو التساؤلات ويحاول أن يضع لها اجابات مؤقتة قبل الشروع في بحثه. وأن يحاول في المرحلة التالية القيام بعملية عزل بعض الوقائع الأدبية عن مجالها بصفة مؤقتة، نظراً لأن مجال تاريخ الأدب مجال يتضمن عدد غير محدود من الأشكال والقضايا. هذا إلى جانب أنه ملزم بالإستعانة بالأستدلال والبراهين التي يتم تحقيقها عن طريق الرجوع إلى الوقائع الأصلية (كالمخطوطات أو أوراق تصحيح الأصول، أو رسائل الأصدقاء، أو تقارير الصحف . . إلخ) والإستدلال والبراهين أما أن تكون خارجية، مصدرها الوثائق المتعلقة بحياة المؤلف الخاصة، أو متعلقة بظروف بيئته الإجتماعية والعوامل التي تحكمت في ظهور آثاره الأدبية. وأما أن تكون داخلية مصدرها الآثار الأدبية ذاتها، كالإشارة في توطئة المؤلف لأحداث وتاريخ معين، أو استخدام عبارات، أو أسلوب معين يلفت انتباه المؤرخ أو الناقد التاريخي.

وهنا قد يقول قائل بأن هذه المهمة قد يستطيع القيام بها الباحث التاريخي بوجه عام فأين دور الناقد التاريخي؟ يجيب سبيلر بأنه يأتي بعد جمع البيانات وبعد تنظيم

الوقائع الأدبية تنظيماً منطقياً. ويمكن أن نعتبر محاولة تقويم البيانات التاريخية ومحاولة تقويم الآثار الأدبية مظهراً من مظاهر إتيان ذلك الدور، أما مرحلة التفسير التي تتضمن في أساسها محاولة الإجابة على التساؤلات: كيف تمت تلك الآثار الأدبية، ولماذا ظهرت وأين نشأت، ومتى ظهرت؟ فإنها تأتي في المرحلة الأخيرة في عمله. وفي هذا الصدد يقرر (سبيلر) أنه من الضروري أن ينظر إلى تلك الوقائع نظرة مجملية فينظر في ظروف كتابتها ونشرها، والظروف التي أسهمت في تحديد شكلها وإتجاهها، بمعنى أن لا ينظر إليها في، عزلتها، أو يحاول نزعها من سياقها التاريخي. وعلى هذا الأساس يجب على الناقد التاريخي أن لا يفهم أية فكرة جزئية إلا من خلال سياقها العقلي الكامن في الحقائق الأدبية التاريخية.

ويضيف سبيلر قائلاً: «وعلى الناقد التاريخي أن يحاول اختبار فرضه أو فروضه التي شكلها لبحثه، عن طريق الوثائق والبراهين التاريخية التي أعدها للبحث. وفي هذه المرحلة تصبح كتابة الناقد التاريخي شبيهة بالكتابة الأدبية التي يكون فيها الخيال محدوداً أو مقيداً.

٥ - وأما إذا أنتقلنا الآن إلى مفهوم التاريخ الأدبي على نحو ما يفهمه عدد من المتخصصين في دراسة الأدب العربي، لوجدنا أن البعض منهم يأخذ إتجاهاً مضاداً لطبيعة الماضي التاريخي للأدب، وأن البعض الآخر يتعسف في إصدار آرائه على الأدب، فلم يبدأ عمله بفرض يمكن أن يثبت فيستقر لديه، أو لا يثبت فيتخلى عنه.

أن بلاشير يرى في كتابه المسمى «تاريخ الأدب العربي» أن منهج الوصف والتحليل هو منهج يتفق وطبيعة دراسة الأدب واللغة العربيين، ويتفق والمراحل التاريخية المتعددة التي عرفها. وفي حديثه عن الأدب قبل الإسلام وبعده، لا يتناوله إلا من ناحية تطوره الشكلي مع إشارات عابرة لبيئته الاجتماعية وظروفه التاريخية وإغفال تام لصلته بالجوانب النفسية والسياسية وغيرها. فالإتجاه العام لديه يدل على أنه يحاول أن يفسر وقائع الأدب العربي على نحو غير مترابط مع الوقائع التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية. فهو لم يحاول أن يفهمها على أنها أحداث ملتحة في سياقها التاريخي وإطارها الاجتماعي.

ولم يحاول أن يفهم أن النظم والتيارات الثقافية السائدة في المجتمع كفيلا بأن ندنا بالخصائص العامة «لروح العصر»، وهذا الإتجاه نراه واضحاً في محاضراته التي ألقاها عام ١٩٦٨ عن «الأدب العربي»، إذ هو يتقدم نحو التعرف على مظاهر أثر العنصر اللغوي على الأدب في مرحلة ظهور الإسلام.

وبديهى أن بلاشير يحاول دراسة الأدب من حيث هو أدب، وبالتالي فإنه يحاول أن يعالج الآثار الأدبية على ضوء علاقتها بعضها ببعض. أضف إلى ذلك أن محاولة نزع الوقائع الأدبية عن مجمل سياقها التاريخ واطارها الاجتماعي لا تنفرد بها مؤلفات بلاشير فحسب بل هناك تلامذته وأتباعه الذين ساروا على دربه وتبنوا منهجه في دراسة الأدب والحضارة الإسلامية، ومن هؤلاء شارل بلا واندرية ميكل ونداطوميش، فهؤلاء جميعاً حاولوا أن يفهموا تاريخ الأدب العربي من حيث هو تاريخ بلا موجهاً دينامية متغيرة، بل تحكمت فيه خصائص إستاتيكية ثابتة.

فشارل بلا حاول في دراسته المسماة "Langue et Litterature Arabe" أن يتناول قضية الأدب العربي منذ ظهور الإسلام حتى بداية العصر الحديث معتمداً في ذلك على تتبع الجانِب اللغوي خلال هذه المرحلة التاريخية وأستطاع أن يبرز مظاهر ذلك الدور في تطور الشكل بوجه عام، وتطور الموضوعات الأدبية بوجه خاص.

و أحرى ميكل "Miquel" عدداً من البحوث على تاريخ الأدب العربي عامة، وأهتم بدراسة الحكايات العربية القديمة خاصة، وهو ينطلق في دراسته المسماة "La Litterature Arabe" من تتبع آثار الدين على الأدب منذ بداية الإسلام حتى العصر الحديث، منطلقاً من فكرة أساسية مؤداها أن أغلب الآثار الأدبية العربية، قديمها وحديثها تعالج أساساً قضايا دينية أو متفرعة عن الدين، فهذا الأخير هو الذى أدى في رأيه إلى خلق قطاع عريض من إنتاج الأدب، وهو الذى حدد معظم الإتجاهات الفكرية كما حدد الأذواق الأدبية.

الصلة تبدو واضحة بين آراء ميكل وشارل بلا ولا سبيل إلى الشك فيهما، ويتجلى ذلك في هذه الثنائية التي يعقدها كل من الباحثين بين اللغة وتطور الأدب، أو تعليل الشكل بالشكل نفسه، وعلى هذا الأساس ينكران وجود صلة بين أبعاد

الحياة الاجتماعية المختلفة والأدب، معتمدين في ذلك على المشاهدة البسيطة العابرة والاستدلال المنطقي المشوب ببعض الشائعات المنتشرة بين المستشرقين في هذا الموضوع.

واهتمت ندا طوميش "Tomiche" بإجراء دراسة على تاريخ الأدب الروائي في مصر منذ نشأته الأولى في القرن ١٩ (عند رافع الطهطاوى، وعلى مبارك) حتى أخذ شكلاً فنياً (عند المازنى والعقاد والحكيم وغيرهم)، وهى تعلق تطور الشكل الروائى عن طريق تطور الشكل نفسه، ومحاولة تتبع حياة المؤلف الشخصية، والأدب كمبدعه لا يتميان لواقع إجتماعى محدد، والأحداث والعقدة الروائية سواء عند لاشين أو عند عيسى عبيد تبدو كأنعكاس لشخصية الكاتب وحده.

من خلال هذه اللمحة العابرة لهذه الأعمال يتضح لنا أننا بصدد إتجاه تأملى ثباتى ينظر للتاريخ والأدب نظرة إستاتيكية تحتم علينا أن ننظر فيه وفى آراء أصحابه لتبين العلة فى هذه النظرة وفى اتخاذ هذه المواقف من التاريخ الأدبى العربى. وسنقتصر على مناقشة «بلا» كما يتضح فى بحثه فى «تاريخ اللغة العربية والأدب العربى» باعتباره المنهج الذى يأخذ به العديد من المستشرقين الفرنسيين فى مضمار الأدب. فما هو منهج بلا أذن؟

هو منهج تأملى ثباتى، فالباحث ينظر فى بعض المراحل التاريخية ويستنتج منها بعض الآراء أما نوع الوقائع التى ينظر إليها فذلك أمر يحدده مذهبه العام، وهو فى جوهره محاولة لتعيين أسباب تطور اللغة والأدب، ومعظمها أسباب ترجع إلى جانب واحد ألا وهو جانب الدين لا جانب النظم الإجتماعية والسياسية والدينية فى وقت معاً. فهو يغفل تماماً دور هذه العوامل ويبحث فيما هو عام فى سائر الوقائع الأدبية، ليسهل له الخروج بعدد من التعميمات.

هذا الإتجاه نحو البحث عن علل الوقائع الأدبية فى الماضى الدينى هو الذى حدد لـ «بلا» تقسيمه للموضوعات التى أراد الوقوف عندها والتى أطلق عليها اسم المراحل الكبرى:

- مرحلة ظهور الإسلام وكانت اللغة تعتمد على الشفاهية ولا وجود للكتابة بوجه عام، أما الأدب والشعر فقد كان مزدهراً.

- بداية العصر العباسى ، وفيه قويت دعائم اللغة الفصحى نتيجة احتكاك الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم الأخرى .

- مرحلة سقوط العباسيين وتدخل النفوذ الأجنبى ، وفيه واجهت اللغة العربية تهديداً بالتدهور .

- مرحلة حملة نابليون على مصر ومسايرة البلدان العربية للركب الحضارى العالمى .

ومن هذا التقسيم بدأ «بلا» بحثاً تحليلياً ثباتياً يحاول فيه بقدر الإمكان أن يبرز لنا عوامل التطور فى اللغة والأدب . فلننظر كيف يمضى فى هذا الجزء وكيف يستفيد من هذا التقسيم .

أن الفكرة العامة التى جعلته يهتم أكثر الأهتمام بالأدب واللغة هى التى توجه بحثه وتصبغه بالصبغة التحليلية الثباتية ، فهو يبحث عن العوامل المحددة لتطور الأدب . وفى رأيه أنها قد تحددت فى عنصر اللغة ، أما حاضر الأدب فليس سوى نتيجة لهذا الماضى التاريخى الدينى .

مثل هذا الحديث قد يحمل على الظن بأن «بلا» كان فى هذا البحث مثالاً لباحث ذى المنهج التجريبي الحديث ، فلديه فكرة قد وجهت ملاحظاته ، أى أننا بصدد باحث يضع فرضاً ثم يحاول اختباره عن طريق التجربة ، ولكن هذا الظن غير صحيح ، فبلا لم يبدأ بفرض ، بل بدأ فى هذا البحث بأراء واضحة لديه ، بحيث أن تقسيمه للمراحل التاريخية وأعطاه أحد العناصر منها أولوية لنفسير تطور اللغة والأدب ، لم يكن من قبيل التجريب بل كان من قبل التبرير . ومن هنا كان بحثه مليئاً بالتعسف والتعسف ميزة واضحة فى مؤلفات بلا وميكل وطوميش . فاهتمامه بالتقسيم لتلك المراحل كان منصرفاً إلى ما تكشف عنه هذه المراحل من جوانب سلبية حاول على الدوام إبرازها بين الحين والحين .

فالأدب فى المرحلة الأولى يتميز بسيادة الطابع الدينى ، ويتجلى ذلك على وجه الخصوص فى الآثار الفكرية . وقد حاول «بلا» جهد استطاعته أن يلقى الضوء على أنماطها المتعددة .

ولا عجب فهي التي ستفسر له المراحل الأخرى . ولما كانت النظرية لديه سابقة على التجريب ، فقد تعسف في كثير من المواضع إلى درجة لا شك أنها تقلل من القيمة العلمية لبحثه . وأبسط دليل على ذلك أنه لم يكن يقعد على القاء عدد من الفروض إذا أفتقد إحدى حلقات السلسلة التي يتابعها في وضوح . أنظر مثلاً تفسيره للغة والفكر العربي ، فاللغة لغة شعرية ، ويفسر ذلك بقول : «أن كلماتها توحى للقارئ بصورة غير مميزة» . بينما الفكر العربي فطري لا يتأثر بالتغيرات التاريخية العميقة فقد بقي عدة قرون صامداً أمام كل محاولات التغيير ، ويضيف «ولا شيء يدلنا الآن أنه قد حطم عناصر الصلة بالماضي» .

لقد ألقى بعدة أفكار ، لا يهمننا في هذا المقام الآن إذا كانت صحيحة أم لم تكن صحيحة ، فالمهم الآن أن نشير أنها لا تبدو في شكل احتمالات أو فروض مستوحاة من الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي بل أغلبها مستوحاة من تأملاته العابرة ، للغة والأدب . هذا التعسف يبدو بوضوح في كون الباحث يقصد نحو شيء يعرفه من قبل معرفة تامة ، وهذا هو الذي دفعنا إلى القول بأن منهج «بلا» في هذا البحث لم يكن منهجاً تجريبياً ، بالمعنى الدقيق ، بل كان منهجاً تبريرياً .

من المؤكد أن «بلا» مستشرق من المستشرقين البارزين ، ومن المؤكد أيضاً أنه قد حاول أن يعالج مسألة الماضي التاريخي للأدب العربي في ظل منهج حديث ، وهذه الحقيقة نفسها هي السبب الذي جعلنا ننظر في منهجه . فالقضية بهذا الوضع مقبولة لدى ذوى النزعة المنهجية الحديثة ، ولكن تحقيق «بلا» لها غير مقبول لأنه مليء بمظاهر التعسف والتعلق بآثار الاتجاهات التحليلية القديمة وما كان يسودها من نزعة آلية .

وقد أضطر منهجه إلى المضي نحو نقيض نزعته الحديثة ، فإنه لكي يرد مظاهر التغيير في الأدب التي لا تخص إلى عدد ضئيل من العوامل ، أضطر أن يستعين بمقدار ضخم من الآليات بحيث فقد تاريخ الأدب ميزة وجوده الشخصي وسياقه الثقافي والاجتماعي ، التي هي من أهم مميزات التفسير الموضوعي لتاريخ الأدب . فإذا تساءلنا كيف كانت هذه النتيجة؟ ألفتنا الاجابة في طريقة فهمه للأدب العربي وتاريخه ، فهو يفهم تاريخ الأدب على أنه مجال يوصف ويحلل مظاهر جزئية

للتطور اللغوي والشكلي، ولكن لما كان تاريخ الأدب بعيداً عن ذلك المفهوم ولما كان «بلا» لم ينتب لذلك، فقد سلك نحو تحقيق فكرته عن الأدب العربي وتاريخه سبيلاً أقرب ما يكون إلى دراسة التاريخ العام من زاوية ثابتية. انظر حديثه عن الثقافة العربية مثلاً، فهو يقرر أنها منغلقة ومنطوية على الاعجاب بالذات. ويفسر ذلك بأن اللغة العربية نفسها لا تترك مكاناً للمؤثرات الخارجية، ولكن ماذا تفعل الآليات التكنولوجية والأنشطة الحديثة في الفكر وفي اللغة وفي بنية الواقع؟ يعجز «بلا» عن الإجابة فهو لا يعرف مبدأ الثبات والتغير في التاريخ والمجتمع كما في الأدب، وفي اللغة.

وإذا كان الأمر كذلك فقد أستحالت النزعة الحديثة لدراسة تاريخ الأدب إلى نقيضها، إلى دعوة تقليدية تحليلية، فالتاريخ الأدبي لم يعد عملية تتضمن عدة عمليات بل أصبح مجموعة من الأجزاء الإستاتيكية والأفكار التي يفرضها الباحث على التاريخ والأدب فرضاً، بحيث لم يعد التعليل دينامياً.

ولكن أين الحدود الفاصلة بالضبط بين العنصر الثقافي الديني واللغة والأدب؟ لا يجيبنا «بلا» على ذلك. فهناك دائماً حديث عن موضوعات الشعر التي لم تتحدد، والشاعر الذي لا يملك في وقت فراغه سوى الأنشغال بذاته.

فالمسألة إذن تعليل بعنصر ثقافي واحد، وبديهي أن التعليل بعنصر حضاري واحد لا يتفق أبداً مع النزعة المنهجية الحديثة، بل هو على الضد من ذلك يعبر عن إتجاه ثابتي فتجزئة الوقائع والظواهر الأدبية هو ذاته مضاد للدعوة الدينامية، فضلاً عن أنه لا يتفق وتكامل الوقائع الأدبية والتاريخية. والواقع إن الإتجاه الثباتي المسيطر على «بلا» بشكل واضح، وليس أدل على ذلك من تفسير وقائع متعددة الجوانب ومعقدة التركيب من زاوية وحيدة الجانب.

يكفي هذا القدر من الأطلاع على فلسفة «بلا» الكامنة وراء أفكاره المفروضة على البحث فرضاً؟ وإذا تساءلنا من أين له هذه الفلسفة، كان لزاماً علينا أن نبحث لها عن تعليل إجتماعي وثقافي، فأما عن الأول فهو ينتمى إلى فئة منغلقة على وجودها الشخصي، وتمثل جزء من البيروقراطية الفرنسية، وأما الثاني فهو الرأي

الشائع عن مدرسة الأستشراق التقليدى منذ أواخر القرن الماضى عن تضخيم الجانب الشكلى وتجميد التاريخ ولم يزل فى أيامنا هذه أساتذة فى الجامعات الفرنسية يدرسون الأدب العربى على ضوء مفاهيم تقليدية ثابتة . فالإتجاهات الفكرية والثقافية الجديدة يشاهدونها مشاهدة عابرة ، ويقفون منها موقف الإنكار وعدم الاعتراف بها ويبدلون الجهد لبقاء الستار الحديدى الذى يفصلهم عن حركة الواقع وربما يرجع ذلك إلى أن معظم الباحثين فى ذلك المجال ، من ذوى النزعة الدينية الضيقة والإتجاهات الغير تطويرية . فهم لا يعملون على التكيف مع الواقع الجديد ، ويفضلون العزلة التى تمنحهم فرصة العيش مع الماضى ومفاهيمه التقليدية لهذا نراهم قد حصروا جهودهم فى الأدب القديم . ففى الفترة التى يعد فيها الباحث هذا العمل نجدهم يدرسون لطلبة الدكتوراه «حكايات ألف ليلة وليلة» ، وغيرها من الأشكال الأدبية القديمة . أما الآداب العربية المعاصرة فينظرون إليها نظرة عابرة .

بإنتهائنا من مناقشة «بلا» نكون قد أتمنا مناقشة معظم المحاولات الحديثة لدراسة تاريخ الأدب على أسس علمية ، ناقشناها من حيث المنهج ومن حيث النتائج الزائفة التى يصل إليها الباحث بالنسبة للتاريخ والأدب . ومن الجلى أن معظم هذا الزيف مرجعه النزعة التحليلية الثابتة التى تشيع عند أغلب الباحثين من المستشرقين فهم تشيع عندهم هذه النزعة وتظهر بمظاهر مختلفة لكنها جميعاً صادرة عنها ، ولقد بينا خطأ الاعتماد على هذا المنهج وعجزه عن تفسير عمليات التاريخ الأدبى ووقوفه عند حدود الوصف دون التقدم إلى التعليل .

المراجع

- Spiller, A., literary History, in: the aims and methods of scholarship, in modern languages and literatures, London, 1960.
- Thorpe, R., Modern language association of america, New-York, 1963.
- Pellat, C., langue et litterature arabe, Paris, 1970.
- Miquel, A., la litterature arabe, Paris, 1969.
- Miquel, A., une conte des mille et une nits, Paris, 1979.
- Tomiche, n., L'histoire de la litterature romancque en egypte. Paris, 1981.
- Soubole, G., Histoire de la litterature, Paris, 1960.
- Lanson, G., Method de L'histoire, Paris, 1925.
- Blachir, A., Histoire de litterature arabe, Paris, 1950.